حافظ وشوقي

صور الحوادث عند الشاعرين

إعلان الدستور العثماني وخلع عبد الحميد

ويسلك شوقي في باقي أبيات قصيدته الطريق التي يسلكها حافظ ، فكما نسب حافظ الى السلطان فضل إعادة الدستور فقد نسب شوقي إليه ذلك فهو يقول :

أهدى إلينا أمير المؤمنين يداً   جلّت كما جلّ في الأملاك مسديها
بيضاء ما شابها للأبرياء دمٌ   ولا تكدّر بالآثام صافيها

ثم يقول : الرأي رأي أمير المؤمنين إذا   حارت رجالٌ وضلت في مراثيها
وإنما هي شورى الله جاء بها   كتابهُ الحقُّ يعليها ويغليها
حقنت عند مناداة الجيوش بها   دمَ البرية إرضاءً لباريها
ولو منعتَ أُريقت للعباد دما   وطاح من مهج الأجناد غاليها

والذي يلاحظ أن قصيدة حافظ مليئةٌ بالفرحة والبهجة والتفاؤل أكثر من قصيدة شوقي ، ولعل مرجع ذلك الى الحيرة التي لازمت شوقيًا بين طبيعة الشاعر الذي يحسُّ بفرح أمة لنهوض الروح الدستورية فيها وطبيعة عمله الذي يستوجب عليه أن يقف من هذه الفرحة عند الموقف لأن في هذه الحركة تنبيهاً للشعب المصري الذي يطالب ببعث الحياة النيابية اليه فيلقى المعارضة والجمود من جانب الجهة التي يرتبط بها الشاعر أوثق رباط ، ولعله كان في صميم نفسه في ضيق من ذلك السكوت فجاءت قصيدته وعليها مسحة من التفكير الهادىء الرزين

حتى اذا حدثت الفتنة بعد ذلك ورأى القوم نية السلطان عبد الحميد في الائتمار بالدستور بعد إعلانه وخنقه من جديد فدخلوا عليه فأخطروه عن عرشه في اليوم السابع والعشرين من شهر ابريل سنة ١٩٠٩ ونفوه الى سلانيك ، وكان لهذه الحركة ما كان لحركة إعادة

الدستور في العهد الثاني سبقه من هزة سرور وفرح عام، رأينا شوقياً يتجه غير ما اتجه إليه حافظ وبقية الشعراء، فهو الذي طالما مدح هذا العاهل الكبير، وكم أكرمه هذا السلطان وأحسن إليه واستضافه في زيارته الى الآستانة، فكان شوقي الحافظ لصنيع هذا السلطان والذاكر لجميله، يؤذيه أن يلقى هذا العاهل العظيم في أخريات حياته ما يلقى، وهو الذي قال عنه قبل خلعه بشهور:

أبي الأمور حمولاً لم تذق رحةً ... ولا استخفتك لذّات دواعيها

مسهّد الجفن مكدود الفؤاد عنا ... يمشي القلوب، شجيّ النفس دانيها

فهو يخاطبه بعد خلعه خطاباً فيه التعظيم والتبجيل، ويبدأ قصيدته في هذا الانقلاب بهذين البيتين:

سلْ يلدزاً ذات القصور ... هل جاءها نبأ البدور ؟

لو تستطيع إجابةً ... لبكتك بالدمع الغزير

ثم يخاطب السلطان بهذه الأبيات:

سُدتَ الثلاثين الطوا ... لَ ولستَ بالحكم القصير

تنهى وتأمر ما بدا ... لك في الكبير وفي الصغير

لا تستشير وفي الحمى ... عددَ الكواكب من مشير

كم سبّحوا لك في الروا ... ح وألّهوك لدى البكور

ورأيتهم لك سُجّداً ... كسجود موسى في الحضور

خفضوا الرؤوس ووتّروا ... بالذلّ أقواس الظهور

ماذا دهاك من الأمو ... ر وكنتَ داهية الأمور ؟

دخلوا السرير عليك يحتكمون في ربّ السرير

أعظِم بهم من آمرين ... وبالخليفة من أسير !

في هذه القصيدة تتجلى عاطفة شوقي أكثر مما تتجلى في قصيدته التي نظمها بمناسبة إعلان الدستور، ذلك أن شوقياً كان يكنّ في نفسه عوامل كثيرة من التقدير لشخصية هذا العاهل، ولا ينسى فضله عليه كما ذكرنا، وليس من الوفاء أن ينقلب عليه، فهو يتألم له ويجلّه

في مقترحه . ولا يحمل عليه كما حمل غيره ، مما دعا وليُّ الدين يكن — وكان من الناقمين على السلطان ما لقي في حكمه من العنت والاضطهاد — الى أن يهاجم شوقيًّا بقصيدة من مجزوء رويّه يقول فيها :

لمّا أُديل عن السريــــر بكاه عبّاد السرير

وثمّة شيء آخر ، ذلك أن شوقيًّا ، خُلاق بطبيعته مؤرخاً ؛ وهذه الميزة فيه جعلته لا يحكّم الهوى فيما يتناول من الأشياء ولا يلقي على الناس وعلى الحوادث حكماً مرتجلاً تمليه العاطفة ، وكم تقود الى خطأ في وزن الأشياء وتقديرها ، فهو يساير طبيعة المؤرخ ، لا طبيعة الخطيب الشعبي .

أما حافظ فقد كان متضارب العاطفة ، موزّع الرأي ، بين أن يهاجم السلطان بعد أن جُرّد من جبروته ، وضعف حوله ، وبين أن يرثي له ، ويتذكر أمداحه فيه ورفعه إياه فوق أجرام السماء ، فهو في القصيدة الأولى التي نظمها بعد خلع السلطان مباشرةً والتي يقول في مطلعها :

لا رعى اللهُ عهدها من جدودِ كيف أمسيتَ يا ابن عبد المجيدِ
مُشبعَ الموت من لحوم البرايا ومُجيع الجنود تحت البنودِ

يحسّ انه سيظلم الرجل الذي مدحه زمناً فيقول :

فرح المسلمون قبل النصارى فيك قبل الدروز قبل اليهودِ
شمتوا كلّهم وليس من الهمّــةِ أن يشمت الورى في طريدِ
أنت عبد الحميد والتاج معقو دٌ وعبد الحميد رهنَ القيودِ
خالدٌ أنت رغم أنف الليالي في كبار الرجال أهل الخلودِ

غير أن طبيعة الخطيب الشعبي التي كانت تغلب على حافظ — الى جانب ما كان فيه من ميل الى مجاراة التيارات القوية التي تستميل الجماهير ، مما كان سبباً في مسايرة أحزاب متعددة — دفعت حافظاً آخر الامر الى أن يجاري شعور أبناء البلاد العربية الذين هبّوا يهاجمون السلطان المخلوع هجوماً عنيفاً قاسياً ، لأن التيّار في هذه الوجهة كان قويًّا ، ذلك من ناحية . ولعلّهُ خشي من ناحية أخرى السخرية التي قوبلت بها قصيدة شوقي من وليّ الدين

يكن . فنظم قصيدة أنشدها في ٢٣ من يوليه سنة ١٩٠٩ في الحفل الذي أقيم بعد ثلاثة أشهر من خلع عبد الحميد احتفالاً بعيد الدستور العثماني ، وقد نسي حافظ في قصيدته هذه ما كان يقوله في عبد الحميد من آيات التمجيد والتكبير ، وبدأ يصوّر سياسة ذلك السلطان تصوير الساخر الشامت ، ورسم خلال ذلك صورة لوسائل الجبنة والحذر التي كان يحيط عبد الحميد نفسه بها ، فأبدع في الرسم . ثم قال يخاطبه على لسان الحق وهو في منفاه :

يناديه صوتُ الحقّ ذُقْ ما أذقتهم فكلُّ امرئٍ رهنٌ بما هو كاسبُهْ
ثم سنحوك اليوم ما أنت مشتهٍ فرُدَّ لهم بالأمس ما أنت سالبُهْ
ودع عنك ما أمّلت إن كنت حازماً فلم يبق للآمال فضلٌ تجاذبه
مضى عهد الاستبداد واندكّ صرحه وولت أفاعيه وماتت عقاربه

وهذه القصيدة لا تقلّ في قسوتها على ذلك السلطان عن القصائد التي نظمها شعراء البلاد العربية الذين قاسوا من العهد الحميدي أشدّ ألوان الجور والاستبداد ، ولمسوا سوء هذا الحكم . وإن كان الأستاذ أنيس المقدسي يرى أن الشعر المصري « قد قابل خلعه برعشة مقرونة بالعطف والشفقة ، وذلك على ما يظهر لسببين : (١) لأن المصريين الحديثين لم يذوقوا من الادارة الحميدية ، ما ذاقه إخوانهم في الأقطار الأخرى (٢) ولأنهم كانوا إزاء احتلال أجنبي فد أثار حفائظهم الدينية والجنسية ، فليس من الوفاء الوطني وقد جاهروا مراراً بودّهم للعثمانية أن ينقلبوا على الخليفة الآن ، ويحطّوا من شأنه أمام الأجانب ، وقد كانوا الى الأمس يعظّمونه ويدعون له . فليس غريباً إذاً أن تظل علاقتهم بعرش الخلافة حيةً فعّالة ، وأن يكونوا أعطف على الهاوي عنه ، وأقرب الى الصفح عن سيئاته »(١)

* * *

من هذه القصائد في تلك المناسبة يتجلى لنا موقف شوقي المؤرخ الذي يسجل الحوادث دون أن يحكم لأيّ جانب خشية أن يتحكم فيه الهوى بدافع العاطفة الشعبية . وإن كانت العاطفة الذاتية قد مالت به جانباً كما لا يخفى ، ذلك الى أن شوقياً لم يكن يبالي إرضاء الجماهير قدر مبالاته إرضاء النزعة الفنية فيه — فنية التاريخ وفنية الشعر . . أما حافظ

(١) كتاب « العوامل الفعالة في الأدب العربي الحديث » للأستاذ أنيس الخوري المقدسي — ص ٤٨

فكان كتابه دائماً، وكما هيأته ظروفه، مسايراً للعواطف الشعبية، مجيد تجيبت ميولها وأفكارها ووثباتها، مهما بدا تناقضه في هذه المسايرة.

على أننا اذا نظرنا الى هذه الآثار من الناحية الفنية وجدنا حافظاً قد استطاع أن يرسم صوراً فيها قدرة، وفيها إبداع، لانه لم يكن مقيداً أو حذراً عند إبدائه لرأيه بالدستور، ولم يكن منكراً لشيء من الماضي عندما هاجم الخليفة المعزول. ولكنه في قصيدته الاخيرة خال من العاطفة الذاتية التي فاضت بها قصيدة شوقي، وإذ لقيت تلك من هجوم الناقدين ما لقيت.

أحداث

ولنطو الحوادث طياً فقد مرّ بالشاعرين منها كثير، ولكن كانت الظروف تحول بين أن يكون أحدهما أو كلاهما صريحاً أو على حدّ التعبير العادي — على حريته — فيما يقول. فلقد مرّ بهذا البلد في عصرهما حادث لم يبدُ أثره في شعرهما كما كان يجب أن يبدو واضحاً، لانه يكاد يكون عديم الأثر عندهما، ذلك هو خلعُ الخديو عباس في ١٩ من ديسمبر سنة ١٩١٤ بعد إعلان الحماية على مصر بيوم واحد... ولقد تغيرت تلك الظروف، وجُمع شعر الشاعرين بعد سنوات بعيدة، ولكن لم تنشر لهما قصيدة تتناول هذا الحادث، وكان في استطاعتهما أن يكتبا شيئاً للتاريخ وإن لم يستطيعا نشره في حينه.

ولنطو ذلك لان ظروفاً ألجأت حافظاً بعد ذلك الى الصمت حتى اذا أراد أن يشارك الشعور الوطني سنة ١٩١٩ شاركه متخفياً، ولان ظروفاً قاسية أقصت شوقياً وباعدت بينهُ وبين وطنه في وقت هو من أحرج الاوقات في تاريخ هذا البلد فلم يستطع المساهمة بشعره في إلهاب الشعور، حتى اذا عاد، عاد يغرّد وحده لان الطائر الذي كان يجاوبه آوى الى العشّ وسكت عن التغريد إلا بعض سقسقات لا تحمل من الغناء روحه ولا من القوة معناها.

ولنطو ذلك طياً، ولننظرْ في شيء غيره، أو لونٍ آخر من الاحداث ترك صدى في نفسيهما لا تكون الظروف فيه قيداً يغلّ شاعريتهما أو يدعو كلاً منهما الى التناقض مع طبيعة نفسه. وأمامنا من هذا اللون في شعر حافظ وشعر شوقي قصيدتان تناولتا كارثة

أصابت بلداً من بلاد القطر ، هي كارثة حريق « ميت غمر » في عام ١٩٠٢ التي ظلت النار تأكل فيها ثمانيـة أيام . وقصيدتان لهما تناولتا كارثة من كوارث الطبيعة ، الأولى لحافظ في زلزال « مسّينا » والثانيـة لشوقي في زلزال « طوكيو » ثم قصيـدتان لهما في حادث الاعتداء على الزعيم الخالد الذكر سعد زغلول .. وذلك لنتبين مدى تصوير كلٍّ منهما لهذه الأحداث ومدى التوفيق في كل صورة .

* * *

فأما حريق « ميت غمر » فقد نظم فيه حافظ قصيدته التي يقول في مطلعها :

سائلوا الليل عنهمُ والنهارا   كيف باتت نساؤهم والعذارى ؟

ونظم شوقي قصيدته التي يقول في مطلعها :

الله يحكم في المدائن والقرى   يا ميت غمر خذي القضاء كما جرى

ولكي نبدأ في تحليل القصيدتين نعود الى قصيدة حافظ لنرى كيف صوّر هذه الكارثة فهو يقول بعد هذا المطلع :

كيف أمسى رضيعهم فَقَدَ الأمّ ، وكيف اصطلى مع القوم نارا ؟ !
كيف طاح العجوز تحت جدارٍ   يتداعى وأسقفٍ تتجارى ؟ !
ربِّ إن القضاء أنحى عليهم   فاكشف الكرب واحجب الأقدارا
ومُرِ النار أن تكفّ أذاها   ومُرِ الغيث أن يسيل انهمارا
أين طوفان صاحب الفُلك يروي   هذه النار ، فهي تشكو الأُوارا ؟
أشعلت فحمة الدياجي فباتت   تملأ الأرض والسماء شرارا
غشيتْهم والنحس يجري يميناً   ورمتْهم والبؤس يجري يسارا
فأغارت وأوجُه القوم بيضٌ   ثم غارت وقد كسَيْنَ قارا
أكلتْ دُورهم فلما استقلتْ   لم تغادر صغارهم والكبارا
أخرجتهم من الديار عراةً   حذر الموت يطلبون الفرارا
يلبسون الظلام حتى اذا ما   أقبل الصبح يلبسون النهارا
حُلّةٌ لا تقيهم البرد والحرّ ولا عنهمُ تردّ الغبارا

وتلك صورةٌ حيّة تبرز في كل آن لكل حادث من هذا النوع دون أن تفقد روعتها بانقضاء مناسبتها ، وهي صورة استطاع حافظ أن يجلوها وأنه تدبّ فيها الحياة لأنه استمدَّ من نفسه ومن مرائي الشقاء التي لمسها في صباه وعاينها في شبابه الأول عندما التحق بالجندية ألواناً لهذه الصورة تبدو واضحة جليةً ، واستمدَّ من ينابيع آلامه ما بثَّ الروح في هذه الصورة ... ولذلك نجده بعد هذه الأبيات يثور على المجتمع ثورة كانت مكبوتة فأثارتها الكارثة فيقول :

أيها الرافلون في حلل الوشـــي يجرُّون للذيول افتخارا
ان فوق العراء قوماً جياعاً يتوارون ذلّـةً وانكسارا

ويندفع ساخراً بالفوارق الاجتماعية ويندّد بالأفراح التي يهدر فيهـا سراةُ القوم المال الوفير يبذلونه مرسحة في مسرّاتهم وقد غفلوا عن آلام البائسين ودموعهم ، وكأنما قد مسَّ هذا الحادث جرحاً عميقاً في نفسه فهو يقول :

قد شهدنا بالأمس في مصر عُرساً ملأ العينَ والفؤاد ابتهارا
سال فيه النضارُ حتى حسبنا أن ذاك الفناء يجري نضارا

ولعلها كانت الصيحة الاولى في الشرق دوّى بها الشعر على لسان حافظ شاعر الشعب . ولقد كانت هذه القصيدة في مقدمة الحوافز الدافعة لظهور النزعة الاجتماعية عند حافظ، الذي قُدّر له أن يكون شاعرها المبرّز ، مما تجلّى بعد ذلك في قصائد أخرى له كالقصائد التي نظمها في رعاية الأطفال وفي الأيتام وملجأ الحرية وغير ذلك[1]، إن لم تكن هي الحافز الأول.

هذه هي صورة تلك الكارثة في شعر حافظ يجلوها زاخرة بالحركة ، ناطقة بالروعة ، متماسكة في وحدة تامة وعاطفة متقدة .

أما شوقي فقد بدأ قصيدته بالمطلع الذي أشرنا اليه ثم تحدّر منه الى أبيات في حكمة الصبر على المصائب، وذكر لمدن أصابها التدمير في التاريخ القديم كعمورة وسدوم ، حتى اذا أراد أن يصف الكارثة كان جهد القوى مهيض الجناح يقول :

طلعت عليك النار طلعة شؤمها فمحتك آساماً وغيرت الذُّرا

---

(١) راجع القسم الاخير من الجزء الاول من ديوان حافظ ابراهيم ، نشرته وزارة المعارف عام ١٩٣٧

ملكت جهاتك ليلةً ونهارها حمراء يبدو الموت منها أحمرا
لا ترهب الطوفان في طغيانها لو قابلته ولا تهاب الأبحرا

وهذا البيت كأنما أراد به أن يردّ على حافظ في قوله :

أين طوفان صاحب الفلك يروي هذه النار ، فهي تشكو الأوارا ؟

ثم يقول متابعاً صورته :

أمسى بها كل البيوت مبوّباً ومطنّباً ومسيّجاً ومسوّرا
أسرتهم وتعلّكت طرقاتهم من فرّ لم يجد الطريق ميسّرا
خفيت عليهم يوم ذلك مورداً وأضلّهم قدرٌ فضلّوا المصدرا
حيث التفتّ ترى الطريق كأنها ساحات حاتم غبّ نيران القِرى
وترى الدعائم في السواد كهيكل خمدت به نار المجوس وأقفرا
وتشمّ رائحة الرفات كريهة وتشمّ منها الثاكلاتُ العنبرا
كثرت عليها الطير في حوماتها يا طير كل الصيد في جوف الفرا

* * *

وهذه هي الصورة التي أراد شوقي وضعها لهذه الكارثة تبدو باهتة الألوان ، متهافتة اللفظ ، مفككة الوحدة ، على غير عادته في الوصف . ذلك أن شوقياً لم يكتبها كما يجب أن تكتب ، ولأنه لم يحسّ في نفسه الألم الذي أحسّه زميله ؛ فهي صورة مترفة لا تعبر عن مصاب ، ولعلّ هذا البيت الذي قاله شوقي في هذه القصيدة يكشف لنا عن سرّ هذا العيب ليكون مؤيداً لنا في هذا الحكم إذ يقول :

ما زلت أسمع بالشقاء روايةً حتى رأيت بك الشقاء مصوّرا

فإن الإحساس بالرواية غير الإحساس بالشعور والتجربة ، وشوقي لم يشهد من المصائب والآلام ما شهد حافظ ، وفي ذلك يقول الأستاذ اسماعيل مظهر « إن بين جنبي شوقي روحاً ثائرة ونفساً متأججة ، ولكنها ثورة أشبه بثورة الرياح إذ تهبُّ فتيّة هوجاء ثم لا تلبث أن تمرّ عليلة ناعمة ، أو نار الهشيم إذ تتأجج مندلعة الألسن في لحظة ، وتصبح رماداً في أخرى . والصناعة بين يدي شوقي إنما تخضع لجماح هذه الصفات الفطرية الطبيعية . حيث

أثارت ثورة نفسه تسمو معانيه وتقوى شاعريته . فاذا خبت نارها هبطت المعاني والشاعرية معاً الى منزلة لم ينزل اليها الكثيرون من شعراء هذا العصر . وحيث تتأجج بحادث يمس مشاعره تسري النار سارية بين أبياته بل بين كلماته ، فاذا هدأت العاصفة ونامت طوى عليها وعلى الشعر ستراً من ميوعة الفطرة ولين الطبع ينزل بشعره الى المستوى الذي لا يحسده عليه الكثيرون من أهل صناعته » [١] .

ولعل الاستاذ مظهر حين أطلق هذا الرأي بمناسبة تكريم شوقي منذ عشرين عاماً كان ينظر الى هذه القصيدة بالذات كما تنظر اليها اليوم .

* * *

أما حادث زلزال « مسينا » الذي صوّره حافظ وحادث زلزال « طوكيو » الذي صوّره شوقي فقد كان مصدر الشاعرين فيهما خيالهما ، فهما من باب الاستيحاء البعيد . فأما حافظ فقد انتفع بألوان من قصيدته في حريق « ميت غمر » فنفس روحه فيها ، ولكن لم يستطع أن يبلغ ما بلغ من قبل ، فالحركة الطبيعية في قصيدته الاولى تقابلها حركة مفتعلة في قصيدته الثانية ، فهو يفتتح هذه القصيدة بقوله :

نبّئاني إن كنتما تعلمانِ ما دهى الكون أيها الفرقدانِ
غضب الله أم تمرّدت الأر ض فأنحت على بني الإنسانِ
ليس هذا سبحان ربي ولا ذا ك ولكن طبيعة الأكوانِ
غليانٌ في الأرض نفّس عنه ثورانٌ في البحر والبركانِ
ربِّ أين المفرُّ والبحر والبـ ـرُّ على الكيد للورى عاملانِ

ثم يقول :

ما (لمسّين) عوجلت في صباها ودعاها من الردى داعيانِ
ومحت تلك المحاسن منها حين تمّت آياتها آيتانِ
خُسفت ثم أُغرقت ثم بادت قُضيَ الأمر كله في ثوانِ

---

(١) راجع بحثاً للاستاذ اسماعيل مظهر عنوانه « احمد شوقي ودلالة شعره على نفسيته » في كتابه « تاريخ الفكر العربي » ص ١٤٨ و ١٤٩

بغت الأرض والجبال عليها　　وطغى البحر أيما طغيان
تلك تغلي حقداً عليها فتنشـق انشقاقاً من كثرة الغليان
فتجيب الجبال رجماً وقذفاً　　بشواظ من مارج ودخان
وتسوق البحار رداً عليها　　جيش موج نائي الجناحين داني
فهنا الموت أسود اللون جونٌ　　وهنا الموت أحمر اللون قاني
جنّد الماء والثرى لهلاك الـ　　ـخلق ثم استعان بالنيران
ودعا السحب عاتياً فأمدّتـه　　بجيش من الصواعق ثاني
فاستحال النجاة واستحكم اليأ　　س وخارت عزائم الشجعان

هذه القصيدة يمكننا أن نسميها دون تجنٍّ «قصيدة جغرافية البراكين» .. فالافتعال والتصنع باديان فيها، ولولا الأبيات التي صوّر فيها الفاجعة لما أحسسنا في هذه القصيدة شيئاً من القوة، وها هي الأبيات:

رُبَّ طفلٍ قد ساخ في باطن الأر　　ض ينادي: أمّي، أبي، أدركاني!
وفتاةٍ هيفاء تشوى على الجمـ　　ـر تعاني من حرّه ما تعاني
وأبٍ ذاهلٍ إلى النار يمشي　　مستميتاً تمتدُّ منه اليدان
باحثاً عن بناته وبنيه　　مسرع الخطو مستطير الجنان
تأكل النارُ منه لا هو ناجٍ　　من لظاها ولا الفتى عنه واني
غصّت الأرض، أُتخم البحر مما　　طوّياه من هذه الأبدان
وشكا الحوت للنسور شكاةً　　ردّدتها النسور للعقبان
أسرفا في الجسوم نقراً ونهشاً　　ثمّ باتا من كظّةٍ يشكوان

نعم، لولا هذه الأبيات لفترت القصيدة كلها فلا نحس قوة ألفاظها التي استعملها ليخلق لفكرته جوّاً مناسباً وليثير مشاعر السامع فلم يستطع الإتيان بصورة ترتفع إلى مستوى قصيدته الأولى في حريق «ميت غمر» ولم يستطع أن يبلغ حدود الروعة التي بلغها شوقي — فيما بعد — في قصيدته عن زلزال «طوكيو» التي يقول فيها:

قف (بطوكيو) وطُف على يوكاهامه　　وسلُ القريتين كيف القيامه؟!

دنت الساعة التي أنذر النا ... س وحلّت أشراطها والعلامه
قف تأمل مصارع القوم وانظر ... هل ترى من ديار عاد دعامه
خسفت بالمساكن الأرض خسفاً ... وطوى أهلها بساط الإقامه
طوّفت بالمدينتين المنايا ... وأدار الردى على القوم جامه
لا ترى العين منهما أين جالت ... غير نقض أو رمة أو حطامه
حازم من مراحل الأرض قبرٌ ... في مدى الظن عمقه ألف قامه
تحسب الميت في نواحيه يسعى ... نفخة الصور أن تلم عظامه
أصبحوا في ذرى الحياة وأمسوا ... ذهبت ريحهم وشالت نعامه

فالشاعر هنا يعطي الصورة المتخيلة حقها من الدقة ولا يدفعها دفعة واحدة ولكن يعرض المشاهد لمحة لمحة ويصورها من مختلف الزوايا حين يقول :

دولة الشرق وهي في ذروة العز ... تحار العيون فيها فخامه
خانها الجيش وهو في البر درعٌ ... والأساطيل وهي في البحر لامه[١]
لو تأملتها عشية جاءت ... خلتها في يد القضاء حمامه
رجّها رجّة أكبّت على فر ... نيه (يوذا) وزلزلت أقدامه
استعذنا بالله من ذلك السيـ ... ـل الذي يكسح البلاد أمامه
من رأى جاحماً يهب هبوباً ... وحياً يسح سح الغمامه
ودخاناً يلف جنحاً بجنح ... لا ترى فيه معصميها اليمامه
وهزيماً كما عوى الذئب في كل ... مكان وزمجر الضرغامه !

وتبدو الحركة في جوانب الصورة طبيعية لم يفتعلها شوقي كما افتعلها حافظ ، ولم تأخذ طريقها بالروح الجغرافي الذي لبس حافظاً حين أراد الاستقصاء والتصوير ، لأن هذا هو مجال شوقي الطبيعي ، فهو هنا الرسام البارع الذي يضرب بريشته ضربات سريعة تترك أثرها على اللوحة في غير تهويل أو تصنع ، وحين يرسم الصورة التي حاول حافظ رسمها كشاعر ولم يرق الى ذلك يقول :

---

(١) لامة = درع

أتت الأرض والسماء بطوفا ن ينسّي طوفان نوح وعامه
فترى البحر جُنّ حتى أجاز الـ ـبرّ واحتلّ موجُهُ أعلامه
مزبداً ثائر الأجاج كجيش فوّض العاصفُ المبوب خيامه
فلك نوح تعوذ منه بنوح لو رأته وتستجير ذمامه
قد تخيلتُهم منابيل سحر من قراع القضاء صرعى مدامه
وتخيلتُ من تخلّف منهم ظنّ ليلَ القيام ذاك فنامه
أبراكين تلك أم نزوات من جراح قديمة ملتامه

فالأفق في هذه الصورة أبعد وأوسع ، والتصوير أبلغ وأروع حتى من القصيدة التي وصف بها حافظ الحريق مبت غمر وضيق بها شوقيًّا في ذاك الوقت .. ومن ذلك يتبين أن باع حافظ في التخيل البعيد قصير بالنسبة لشوقي ، ولعلّ مرجع ذلك الى ما أشار اليه الدكتور طه حسين بك من أن «طبيعة حافظ يسيرة جدًّا لا غموض فيها ولا عسر ولا التواء»[1]. لذلك «لن تجد في هذا الشعر عمقاً ، ولئن حللته وأخرجته من صورته الرائعة فلن يترك في نفسك أثراً»[2]. أما طبيعة شوقي فشيء آخر ، معقّدة يلبئنا شوقي نفسه بتعقيدها . فيها أثرٌ من العرب وأثرٌ من الترك وأثرٌ من اليونان وأثرٌ من الشركس . التقت كل هذه الآثار وما فيها من طبائع واصطلحت على تكوين نفس شوقي فكانت هذه النفس بحكم هذه الطبيعة أو الطبائع أبعد الأشياء عن البساطة وأنآها عن السذاجة ، وهي بحكم هذا التعقيد والتركيب خصبة كأشدّ ما يكون الخصب ، غنية كأوسع ما يكون الغنى»[3].

* * *

ومن ضعف حافظ في هذه القصيدة يتجلى لنا عجزه من الوقوف أمام مشاهد الطبيعة وقفة التأمل الشاعري والاستغراق الحسيّ فيها واستكناه أسرارها ، على العكس من شوقي الذي كان يمدّه تفكيره الواسع وخياله الوثاب واستغراقه في مشاعر الطبيعة وحبه لها

(١) كتاب «حافظ وشوقي» للدكتور طه حسين بك صفحة ١٩٦ (٢) و (٣) المرجع نفسه صفحة ١٩٨ و ١٩٩

على إبراز كثير من الصور حية متحركة . وقد ذكر المرحوم مصطفى صادق الرافعي عن حافظ أنه كان «أول نشأته يأخذ في طريقة المعرّي الذي حي عن الطبيعة حيناً يخلقها من فكره ويسرطه بعبارات غريبة يُغرق فيها يحسب انه بذلك يعمّم الحقائق فتخرج له الأخيلة الساحرة وما يدري أنه بهذا الغلوّ لا يجيء إلاّ بالأباطيل الكبيرة . ولكن حافظ في ديباجته وتركيبه ونشأته كان رجلاً مبنيّاً على الوضوح والقصد فلم يفلح في طريقة المعرّي ؛ وزحزحه كذلك بانتهاءه من الفلسفة وإبهامها ومن الطبيعة وألغازها ومن العقل ووساوسه ، هو الذي ، أدّاه الى الشغف بالحقيقة واستخلاصها في كل أغراضه التي أجاد فيها . ومن ثم خلا شعره ، أو كاد يخلو ، من أوصاف الطبيعة في جملتها بلغة الفكر المتأمل ومن أوصاف الجمال في سحره بلغة القلب العاشق»[1] .

***

وعلى ذلك نستطيع أن نقول إن قصيدة شوقي تمتّ الى الحياة بأكثر من صلة واحدة في حين لا تمتّ قصيدة حافظ اليها بسبب إلاّ في الأبيات الثلاثة التي صوّر فيها الأشباح الحائرة ، وهي صورة قديمة وُلدت في خياله يوم نظم قصيدته في كارثة «ميت غمر» ولكن لم يُتَح لها الظهور إلاّ في حادثة «مسّينا» ... أما الصورة التي رسمها فهي أقرب الى الرواية الجغرافية — كما قلنا — منها الى التصوير الشعري الرائع المستمدّ عناصره من قوة الخيال وبُعد الأفق واتساع التفكير ... ذلك أن حافظاً تناول في تصويره للثورة البركانية الظواهر الخارجية كما قرأ عنها ، ولم يتغلغل الى الأثر الباطني الذي تتركه هذه الثورة في خيال الإنسان ووجدانه ، أي أن الشاعر لم يحاول — أو لم يستطع — أن يأتي بجديد مما هو مألوف في صورة البركان مما يتخيّله الإنسان العاديّ لها ، ولم يستطع أن يجري في صورته دماً يبعث فيها الحيوية ، ويشيع الحركة ، ويوقد الشعور ، ويحرّك الوجدان

حسن كامل الصيرفي

(١) راجع مقال «حافظ وشعره» للمرحوم مصطفى صادق الرافعي في مجلة المقتطف في عدد أكتوبر ١٩٣٢ ج ٣ م ٨١ ص ٢٧١